

أهمية الزمن في فكر عبد الرزاق قسوم.

د. واسيني أولاجي

قسم الفلسفة، جامعة سيدي بلعباس

chardon22@yahoo.fr

الملخص:

قام المفكر عبد الرزاق قسوم بالتطرق إلى كثير من المواضيع الفلسفية، إذ عمل على تفسيرها متتبعا في ذلك منهجا جديدا، فامتازت رؤيته بتحليلات نقدية عمل من خلالها على إبراز الخلل الذي أعاق العقل العربي الإسلامي، ومنعه من أن يكون عقلا مبدعا، كيف لهذا الفكر أن يسترجع قوته ويتمكن من تجاوز العوائق التي تثبطه وتمنعه من النهضة، تلك أسئلة شغلت فكر عبد الرزاق قسوم وحاول أن يقدم لها جوابا من خلال إسهاماته الفكرية، ونظرا لأن فكرة الزمان مهمة في معادلة الحضارة أخذت حيزا كبيرا في كتاباته.

الكلمات المفتاحية: الزمن؛ الأهمية؛ الفكر؛ عبد الرزاق قسوم.

لقد قام المفكر عبد الرزاق قسوم بالتطرق إلى كثير من المواضيع الفلسفية، إذ عمل على تفسيرها متتبعا في ذلك منهجا جديدا، فامتازت رؤيته بتحليلات نقدية عمل من خلالها على إبراز الخلل الذي أعاق العقل العربي الإسلامي، ومنعه من أن يكون عقلا مبدعا، كيف لهذا الفكر أن يسترجع قوته ويتمكن من تجاوز العوائق التي تثبطه وتمنعه من النهضة، تلك أسئلة شغلت فكر عبد الرزاق قسوم وحاول أن يقدم لها جوابا من خلال إسهاماته الفكرية، ونظرا لأن فكرة الزمان مهمة في معادلة الحضارة أخذت حيزا كبيرا في كتاباته. تعتبر فكرة الزمن من أصعب المسائل التي فكر فيها العقل الإنساني، حيث نالت اهتمام الفلاسفة والمفكرين والعلماء قديما وحديثا، وبذلك اعتبر حجر الزاوية في ميادين شتى من المعرفة الإنسانية، إننا نعيش في زمان نحس به ولكن لا نستطيع إدراك ماهيته، وقديما قال أبو البركات البغدادي " فمن يشعر بذاته يشعر بالوجود أعني بوجود ذاته... وكذلك الزمان يشعر به كل إنسان، وأكثر الناس جملة ويشعر بيومه وأمسه وغده بالجملة ما مضى زمانه ومستقبله وبعيدة وقريبة، وإن يعرف جوهر الزمان وماهيته، وكذلك الوجود يشعرون بآنيته وإن لم يشعر

بماهيته¹، إنّ عدم إدراك ماهية الزمان أنتج تباينا كبيرا في المذاهب التي تناولته بالدرس والتحليل، إنها إشكالية ارتبطت بمصير الإنسان ووجوده. إنّ الاستومولوجيا المعاصرة تعتبر إشكالية الزمن جوهر المباحث المعرفية وأهمها، لما لهذا الإشكال من أهمية علمية ونفسية وأخلاقية، إذ اهتمت بفكرة الزمن لما تفرزه من قيم تمنح للزمن بعدا إنسانيا ذلك لأن الزمن رهين مصير الإنسان الأبدي، اتجاه نفسه والعالم، كل حادثة أو ظاهرة اجتماعية كانت أو طبيعية لا تجد ماهيتها إلا من خلال التقسيم الإجرائي للزمن الذي تخضع له، وهكذا تستمر مع الإنسان الأسئلة الأنطولوجية، التي تتمخض عن سؤال الإنسان وعلاقته بالوجود والعدم، باعتباره كائنا فانيا، فلا يمكن فك ألغاز الوجود إلا من خلال استحضار مفهوم الزمن، فصعوبة إدراك الزمان فتح المجال أمام تنوع كبير في الرؤى، اختلفت باختلاف المرجعيات الفكرية والفلسفية، فقد اهتمت الفلسفة اليونانية بإشكالية الزمن منذ المدرسة الطبيعية، فالزمان عند أنكسيمندريس هو أشبه بالقانون الكلي الذي تخرج منه الأشياء، وارتبط مفهوم الزمان في الفلسفة الإسلامية بوجود الله، ذلك لأنّ أساس انطلاقها هو التوحيد، فكل أفكار الفلاسفة المسلمين تنطلق منها فهي مصدر تأملاتهم لهذا جاءت فكرة الزمان منسجمة معها، فالقارئ لما خلفه هؤلاء الفلاسفة من الكندي والفارابي إلى ابن سينا كل حسب

¹ - أبو بركات البغدادي ، المعبر في الحكمة، ج3، طبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد بالهند،

تصوره الخاص ينطلق من النسبي إلى المطلق، من الزمانية إلى السرمدية، من الفيزيقا إلى الميتافيزيقا، إذ الكندي يعتبر مهمة الفلسفة هي تثبيت الحجج على ربوبية الله وإيضاح وحدانيته.

فإذا جئنا إلى ما كتبه المفكر عبد الرزاق قسوم حول إشكالية الزمن نجده يدخل ذلك في إطار توجيه الفكر العربي الإسلامي إلى إدراك أهميته في قيام النهضة، وصناعة الحداثة، وهذا ما ذهب إليه أدونيس، حيث يعتبر أنّ الحداثة هي أن يعي الإنسان نفسه في الزمن، ومن تم ذهب قسوم إلى التنقيب في التراث وعمل على إبراز أهمية الزمان في فلسفة ابن رشد، إنها العقلانية في قمتها، ولما سُئل عبد الرزاق قسوم من مجلة النور لماذا كان الاهتمام بابن رشد؟ أجاب: " كان ولا يزال الجامع المشترك للثقافات والحضارات والديانات، فإنه يعود له الفضل في نقل الفكر اليوناني إلى الفكر اللاتيني عبر الفكر الإسلامي"².

يبدأ عبد الرزاق قسوم في كتابه أثر مفهوم الزمان في فلسفة ابن رشد بتتبع الجذور اليونانية للفكر الرشدي في قضية الزمان، وذلك انطلاقاً من التعريف الذي قدمه ابن رشد " الزمان لا يفهم إلا مع الحركة، الزمان هو شيء يفعلُه الذهن في الحركة، والزمان ليس هو شيء غير ما يدركه الذهن من هذا الامتداد المقدر للحركة، لزم الزمان عن الحركة أشبه بلزوم العدد عن

² - حوار مع عبد الرزاق قسوم، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد 11، اسطنبول، 2015.

المعدود... حتى لو توهمنا قوما حبسوا أنفسهم منذ الصبا في مغارة من الأرض لكن تقطع أن هؤلاء يدركون الزمان"³.

إنّ ربط الزمن بالحركة هو مفهوم أرسطي محض، كما أن الزمان ينتفي في غياب التغير، هذا ما كان يعتقد هروقليطس، وما المغارة التي ذكرها ابن رشد في هذا القول إلا أسطورة الكهف لأفلاطون، فلا وجود للزمن في غياب الحركة والتغير والزمن لا معنى له في غياب الشعور، فإذا كان الزمن هو غير الحركة، فالزمن ينعدم في غياب الحركة.

إنّ إثبات الزمن يعتمد على الوجود الموضوعي للأشياء، الحركة المسافة السكون، يتكلم أرسطو عن أهمية التغير في إحداث الزمان " ذلك أنه متى لم تتغير نحن في فهمنا أصلا، أو تغيرنا ونحن لا نشعر لم نظن أنه كان زمان"⁴، ويربط ابن رشد مفهوم الزمان بالوجود مثل برمنيدس.

والتمييز بين مفهومي الأزل والزمان مفهوم أفلاطوني محض بذلك سبق جميع الفلاسفة، فالأزل كل ما يمكن أن يقال عنه فهو موجود وليس له ماض ولا مستقبل، بل هو أبدي حاضر لا يمكن حصره، وهو ثابت لا يمكن قياسه، لا يبل ولا يبيل، أما الزمان فهو مخلوق مع العالم، من خلال نظام صارم يقترن فيه الليل بالنهار، ودوران الشهور والسنين التي شكلت مفهوم العدد، وبذلك

³ - أبو الوليد ابن رشد، تحافت التهافت، بيروت، الطبعة العربية الكاثوليكية، 1930، ص 627.

⁴ - أرسطو طاليس، ترجمة: إسحاق بن حنين، تحقيق وتقديم: عبد الرحمان بدوي، القاهرة، الدار القومية للطباعة، 1984، ص 412.

يكون أفلاطون قد أخرج الزمن من الجانب الفيزيقي الطبيعي إلى الجانب الميتافيزيقي، يعلّل عبد الرزاق قسوم اهتمام ابن رشد بالفلسفة اليونانية برفض ضمني للفكر الشرقي الذي كان غارقا في الفكر الميتولوجي، ف: " يأتي سر تعلق ابن رشد بالفكر اليوناني، وإعجابه وتأثره بمنهجه من كون أن الفكر اليوناني كان بمثابة رد فعل معاكس للفكر الشرقي"⁵.

يلتقي كثيرا ابن رشد عند ما يتكلم عن الآن مع التصور الأرسطي، حيث يقول فيه أرسطو " فمن الجزئي الأكثر شيوعا، أحدهما قد كان ولم يكن بعد، والآخر سيكون، ولما يكن بعد، فالماضي لا يمكن بعد يكون في حياتنا والمستقبل ليس في أيدينا بعد أكثر أو أقل بعدا، فهناك العنصران اللذان يتألف منهما الزمان... فليس الآن الأحد للزمان وهو الذي يفصل الماضي عن المستقبل"⁶.

إنّ الآن الذي تكلم عنه أرسطو آن غامض إنه آن خارج الزمان، والآن عندما نتكلم عنه في الفلسفة المعاصرة نربطه بالوجود، وهنا لابد من ذكر هيدغر في ربطه بين الحاضر والوجود، وإذا جئنا إلى فلسفة ابن رشد " لا يدخل في الوجود المتحرك من الزمان في الحقيقة إلا الآن، الآن هو سيال، الآن ليس يمكن أن يوجد لا مع الزمان الماضي، ولا مع المستقبل، فهو

⁵ - عبد الرزاق قسوم، مفهوم الزمان في فلسفة أبو الوليد ابن رشد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 24.

⁶ - أرسطو طاليس، كتاب الطبيعة، المصدر السابق، ص 428.

ضرورة بعد الماضي، وقبل المستقبل الذي يجوز وجود آن للحاضر، أو حاضر ليس قبله ماضي، فهو يرجع الزمان والآن⁷.

لقد تشبع الفكر الرشدي بالفلسفة اليونانية، وهذا يتجلى في ما كتبه وخاصة في إشكالية الزمن.

إنّ موضوع الزمان قديما بحثته الفلسفة اليونانية انطلاقا من مواضيع الله الإنسان والطبيعة، فالإنسان بفاعليته ينتج الأحداث، ولا حدث إلّا في زمان، والطبيعة تعتبر وعاءها فحركات الكون تنتج لنا الزمان، التقلب المستمر لليل، والنهار، والذات الإنسانية مهمّة في هذه المعادلة، إن العالم لا يدرك نفسه، وإنّ ما يمكن ملاحظته من فلسفة الزمن عند ابن رشد، إلى جانب تأثر ابن رشد بالفلسفة اليونانية نظرتة للزمن كانت محاطة بكثير من العلوم الدينية، لقد نشأ ابن رشد نشأة دينية، حيث كان جده من أكبر القضاة وإمام المسجد الكبير في قرطبة، وصاحب مؤلفات كثيرة في الشريعة الإسلامية.

هذا ما سيدفع ابن رشد إلى التكلم عن الزمان الذي يرتبط بمفهوم الأبدية، والأزلية والكون والإنسان، فكثيرا ما كان يستعين ابن رشد بالآيات القرآنية، وذلك لتوضيح رؤيته لفكرة الزمان الميتافيزيقي، فالعالم بالنسبة إليه أزلي، فهناك وجود قبل هذا الوجود، ومن هذه الآيات قوله تعالى: " وَهُوَ الَّذِي

⁷ - أبو الوليد ابن رشد، تحافت التهافت، ص 68.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" 8 عالم قبل خلق العالم كان عرشه فوق الماء، وفي آية أخرى يقدمها لنا ابن رشد لينتصر لفكرة قدم العالم، قوله تعالى: " ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ" 9، ومن هنا تبرز فكرة قدم العالم عند ابن رشد كرد على أبي حامد الغزالي، لقد ساعد النقاش الذي دار بين المتكلمين والأشاعرة والمعتزلة في بلورة مفهوم الزمان عند ابن رشد، فكتاب تهافت التهافت جاء متماسكا قويا في أفكاره لا لأي شيء، إلاّ لأنّ أبا حامد الغزالي كان هو الآخر قويا في حججه، فعمل على تصحيح كثير من المسائل الفلسفية وكان كتاب ابن رشد تصحيحاً لهذا التصحيح.

في رأي عبد الرزاق قسوم أنّ الأخذ بالعنصر الديني أخرج ابن رشد من فئة المشائين " العنصر الديني وهو العنصر الذي كان ابن رشد يضعه غالبا نصب عينه أثناء تأملاته الفلسفية، وهو الذي حال في نظري دون حشره ضمن قائمة المشائين" 10. تظهر أهمية الزمان عند ابن رشد عندما ربطه بحياة الإنسان اليومية، وهذا أشبه بالفلسفة المعاصرة، وهذا ما دفعه إلى شرح أرجوزة الشيخ الرئيس وفيها يتكلم ابن سينا عن زمن الأمزجة، وزمن الفصول

8 - سورة هود، الآية 7.

9 - سورة الدخان، الآية 11.

10 - للإستزادة. أنظر فعاليات مؤتمر حول ابن رشد1978:

عبد الرزاق قسوم، مشكلة الزمن في فلسفة ابن رشد، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للفنون، المطبعة، الجزائر، 1986، ص 274.

فلم يكتف ابن رشد بالتكلم عن الزمن الفيزيقي بل تعداه إلى زمن الفقه أين يتفاعل المسلم مع المواقيت التي تنظم حياته الدينية. بالرغم من تباعد الزمان يبقى المنهج الرشدي أقرب إلى المنهج المعاصر، ومن الفكر الرشدي وضع " يكاد الدارس يسلم إسهاما في وضع بعض المفاهيم الخاصة بالزمان السائدة في يومنا هذا " ¹¹، إنّ الهدف الرئيسي من تطرق ابن رشد للزمن الفيزيقي هو الوصول إلى الزمن الميتافيزيقي، ففي الزمن الفيزيقي يكون الزمن تعداد الحركة " فالزمان عبارة عن مقدار حركة الفلك من حيث انقسامه إلى متأخر، ومتقدم، وألا يبقى المتقدم منه مع المتأخر " ¹² فعندما كان الزمان هو لاحق من لواحق الحركة، فالأزلية هي نتيجة هذه الحركة الأزلية، فالزمن هو أشبه بالخط المستقيم امتنع فيه التناهي، إنّ أبا الوليد يرفض فكرة الأشاعرة للزمان حينما تقسمه إلى ماض، حاضر، ومستقبل لأنها تمنع من أن يكون الزمان لا متناهيًا فلا زمن إلاّ الزمن الأزلي.

إذا كان المفهوم الرشدي للزمان يضع الأشياء بداخله فالفلسفة الحديثة والمعاصرة المتمثلة في كل من هيجل، برغسون وبشارل تجعل الزمان داخل الأشياء

يختتم عبد الرزاق قسوم كتابه " مفهوم الزمان عند ابن رشد " بقوله " إذا لم يكن لعامل الزمان من نتيجة، فحسب أمثل عاملا ضروريا لبناء إنسان

¹¹ - مؤتمر ابن رشد ، المرجع السابق، ص 282.

¹² - أبو الوليد، كتاب السماع الطبيعي، حيدر آباد، 1947، ص 107.

روحي دائم... يستنير بنوره الفكر الإنساني على تنوع تياراته ومدارسه¹³.

إنّ اللحظة الرشدية أنارت الطريق أمام الفكر الأوروبي، وساهمت في زمن النهضة في الوقت الذي طمست في موطن ولادتها لتعلن عن أفول حضارة برمتها.

عندما تطرق عبد الرزاق قسوم إلى الزمن في الفكر العربي المعاصر، والذي كان موضوع أطروحة دكتوراه التي تحصل عليها في جامعة سوربون سنة 1979، يبدأ أول ما يبدأ بالتكلم عن معنى اللغة العربية في مفرداتها الدالة على الزمن، وكيف أنّها دقيقة في معناها، فتأخذ كلمة زمن معنى حين، مدة من الزمن: شهران أو ستة أشهر، دهر يعرفه الجرجاني إنّّه الآن الدائم، أما الوقت هو جزء لا يتجزأ من الزمان والأبد هو الخلود، وهذه الدقة في اللغة العربية لمفهوم الزمان يؤكده لويس غردات (Louis Gardet)

« Zaman est le vocable le plus général, pour désigner le temps aussi bien dans les chronologies anciennes qu'en grammaire, astronomie (astrologie et philosophie) »¹⁴

إنّ هذه الشهادات عكس ما أدعاه البعض على أن اللغة العربية نشأت في بيئة صحراوية لم يعر العرب فيها أهمية للزمن وفي هذا يقول عبد الرزاق قسوم: " كل لحظة تمثل بالنسبة للعرب حادث بداية أو نهاية سفر أو استراحة أو

¹³ - مفهوم الزمان عند الوليد ابن رشد، المرجع السابق، ص 227.

¹⁴ - Louis GARDET, Les cultures et le temps, Paris UNESCO, 1975, p 224.

استقرار في مكان أو الإقلاع عنه"¹⁵. بعد ذلك يعرج عبد الرزاق قسوم إلى فكرة أخرى هامة في تميز الفكر العربي الإسلامي بالزمن المنفصل، فالزمن هو مجموعة من المدد أو اللحظات، فحقيقة الزمن في انفصاله ماضي، حاضر، مستقبل.

وهذا ما يؤكد لوياس ماسينيون (Louis Massignon)

« Que le premier travail élaboré par les penseurs musulmans, ignore donc la durée continue et n'envisage que les atomes du temps, des instants ânat »¹⁶

إنّ هذه الرؤية الذرية للزمن نابعة من العقيدة الإسلامية، إن الزمن هو مجموعة من المدد، فعندما يعرفه ابن حزم يجعل منه مدة بقاء الجسم ساكناً أو متحركاً، فمتى جرى العدد والتركيب على الزمن أصبح له بداية وله نهاية، ومن ثم فهو مخلوق عندما ينتهي عبد الرزاق قسوم من هذه الفكرة ينتقل إلى فكرة أخرى أساسية رسمت خيوط الزمن قديماً وحديثاً عند مفكري الإسلام إلى يومنا هذا قد ظلّ الإنسان العربي يقدّس الماضي بل يجعله أساس مرجعيته، فلا نتقدم إلا لنرجع إلى الوراء، وفي هذا يقول عبد الرزاق قسوم " إنه ماضي يلاحق الحاضر يضفي عليه نوعاً من السكون والثبات، وهذا

¹⁵ - A. GUESSOUM, l'idée du temps , dans la pensée contemporaine. دار

البصائر، الطبعة الأولى، الجزائر، 2003، ص 10.

¹⁶ - L . Massignon, Le temps dans la pensée arabo*islamique, opéro, Mirnora. Liban, Dar el Maarif, 1963, p 606.

ما يكبل الحاضر ويمنعه من الماضي قدما"¹⁷، ومن تم ينصحنا قسوم بالرجوع إلى المفكر الغربي (George Mead) صاحب مؤلف (فلسفة الحاضر) إنّ الماضي كان منطلق كل المحاولات الفلسفية التي قام بها المفكرون العرب، فعملوا على تصحيحه، وتجاوز كثير من الأفكار التي اعتبروها هي سبب تأخر العرب في إنتاج النهضة، والحضارة، وهذا يذكرني بإنسان حضارة واد الرافدين الذي يجعل من الماضي مستقبل له " إنسان حضارة واد الرافدين يختلف عن ما نعتقده نحن في تصويره للزمن، إذ يعتبر الماضي أمامه العبارات التي تدل على الزمان في اللغة الأكاديمية والسومارية الماضي والمستقبل هما دالتان مرتبطتان بمفهومي القبل، والبعء، الماضي الحقيقي يوجد أمام الإنسان، وهذا الأخير يتقدم نحو المستقبل عن طريق الرجوع إلى الوراء"¹⁸.

فكيف نتحرّر من هذه الرؤية السلبية للزمن؟ هنا يبين قسوم تأثر كثير من المفكرين العرب المعاصرين بالفلسفات الغربية، وهنا نجد دعاة المذهب الوجودي في الوطن العربي، وعلى رأسهم عبد الرحمن بدوي الذي اقتبس أصول مذهبه من زعيم الوجودية هيدجر وتأثر بآراء كيركيغورد وياسبرس، فيصبح الزمان هو المقوم الأساسي للوجود، فالواقع سيد فيه، إن الموجود لا

¹⁷ - عبد الرزاق قسوم، مفهوم الزمان في الفكر العربي الإسلامي، دار البصائر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2005، ص 90.

¹⁸ - L. Couloubaritsis et J.-J. Wunenburger , les figures du temps, presses de Strasbourg, 1997, p 10-11.

يدرك ذاته إلا من خلال الظواهر التي يعيش فيها، ولا يتأني ذلك إلا بفضل الحرية، ومن تم يصبح الماضي، والحاضر، والمستقبل زمناً واحداً، وإذا جئنا إلى المذهب المادي الذي يتزعمه في العالم العربي الحديث شبلي شميل الذي اقتنع بصحة مذهب النشوء، له مفهوم خاص للزمان يتناسب، ورؤيته المادية للأشياء يبدأ قسم بتعريف المذهب المادي بقوله:

« Le matérialisme philosophique, est donc une doctrine qui vise à nous expliquer l'univers tout entier de sa réalité à partir de la matière et par le jeu des forces matérielles »¹⁹

ومن تم يستند قسم إلى تصوّر ماركس للزمن، فهو عبارة عن مجال التطوّر الإنساني، إذن بهذا التعريف يأخذ مفهوم الزمن طابعا ماديا، إن الصراع من أجل الحياة هو الذي يعطي للزمان معناه.

إلى جانب ذكر هذه المذاهب الفلسفية قام قسم بمعالجة فكرة الزمن عند أصحاب الاتجاه الروحي، إصلاح حال الإنسان بإحياء قواه الروحية، وهنا لا بد من ذكر عثمان أمين وقام بذكر الاتجاه العلمي بقيادة زكي ونجيب محمود، فأصحاب هذه النزعة بحثوا في الزمن من وجوه علمية بحثة، وهنا برز المفهوم البيولوجي، والمفهوم النفسي للزمان، كما لا يمكننا أن ننسى المذهب السلفي الذي اهتم به كثير من مفكري الإسلام المعاصر إستنادا إلى ما قاله السلف لا يصلح حاضر هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها.

¹⁹ - عبد الرزاق قسم، مفهوم الزمن في الفكر العربي المعاصر، المرجع السابق، ص 112.

رغم كل هذه المحاولات التي تنوعت في مشاربها والتي أرادت أن تقدم حلا لإشكالية الزمان قديما، وحديثا، يبقى مفهوم الزمن صعب المنال، كما أكد ذلك القديس أوغسطين عندما لا يسألني أحد عن الزمن أفهمه وأدركه، ولكن بمجرد أنه يَطرح علي السؤال ما الزمان؟ أعجز عن الإجابة عنه.